

سليم تقلا .. الصحفي العصامي

هو عصامي في الصحافة المصرية، أسس جريدة الأهرام في وقت لا يعرف سواد الجمهور من الجرائد اليومية إلا إسمها، ولا تسمح الحكومة بالإذن بنشرها إلا بعد تردد طويل، فمكث عامًا كاملاً يسعى في الحصول على إمتياز الجريدة حتى سمحت الحكومة المصرية بإمتياز جريدة الأهرام سنة ١٨٧٥ وليس جهاده في ذلك الحين للحصول على إمتياز الأهرام هو الجانب الوحيد من متاعبه وعصاميته، بل لقد لاقى في سبيل الوصول إلى غايته من إنشاء جريدة ناجحة صعوبات جمّة.

ولقد عانى الكساد والإضطهاد والأزمات المالية، وسهر الليالي الطوال، بل تحمل السنوات العجاف التي لا تدر ربحًا في الأعمال الصحافية، ولا تثمر غير الخسائر المادية، ولم يكن عنده من الوسائل ما يخفف عنه من تلك الصعاب، ولم يكن له من معين غير شقيقه بشارة تقلا الذي كان يتولى أعمالها الإدارية. ومع ذلك فقد كان سليم تقلا يعمل أعمال عدد من الموظفين والعمال في الشؤون التحريرية والإدارية.

ولقد هوي الصحافة منذ نزل مصر، ولم يكن من قبل صحافيًا، بل كان مدرسًا رقيق الحال، تعلم في مدارس لبنان، وكان لا يجد نفقات التعليم، فأخذ يستعين عليها بما كان يقوم به من أعمال في ساعات الفراغ.

في كفر شيما

ولد سليم تقلا في أواسط سنة ١٨٤٩ بقرية في سفح البنان تدعى "كفر شيما" نبغ فيها جماعة من العلماء والأدباء في الشرق العربي، منهم المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ إبراهيم اليازجي والشيخ خليل اليازجي، والمرحوم أمين شميل وشقيقه الدكتور شبلي شميل وغيرهم من الأدباء والعلماء والأطباء والشعراء.

وقد تلقى سليم تقلا مبادئ العلوم في مدرسة تلك القرية، ثم أنتقل منها إلى مدرسة عبية بلبنان، ولكن هذه المدرسة لم تكن تقبل في صفوفها من كان دون الخامسة عشرة من عمره، فأستنجد والده الدكتور فان ديك، فأنجده وتوسط في إدخاله، فقبلته المدرسة وتجاوزت عن صغر سنه توسمته من نجابته، وحسن إستعداده، فأقام في هذه المدرسة يتلقى علوم ومعارفها، وأعجب أساتذته بتوقد ذهنه، وجمال أخلاقه، وحسن سيرته وعظم نشاطه في الإهتمام بدروسه، ومناقشته لأقرانه.

ولقد بقي مثابرا في مدرسة عبية على إجهاده ونشاطه حتى وقعت ثورة سنة ١٨٦٠ في ربوع الشام ضد إستبداد الأتراك بالحكم وإضطهادهم للأحرار، فأتصل لهيبها بعبية وما جاورها، فبرح سليم المدرسة، وهاجر إلى بيروت، ودخل «المدرسة الوطنية» وسنه وقتئذ أحد عشر عامًا.

وكانت المدرسة الوطنية قد أنشأها المرحوم بطرس البستاني الأديب اللبناني الكبير، فعكف فيها على الدرس والتعليم حتى أتم دروسه، وكان

أثناء وجوده بها يشتغل في ساعات فراغه ليستعين بذلك على نفقات التعليم.

مدرس في مدرسة

وبعد أن حصل على إجازة هذه المدرسة عين أستاذًا في المدرسة البطيركية ببيروت. وقد كان في هذه المدرسة يعلم ما أتقنه، ويتقن ما فاته من العلوم خصوصًا العلوم العربية، التي كان يتلقاها على الشيخ ناصيف اليازجي، الذي كان من أساتذة تلك المدرسة. ولقد كان يعتمد عليه الشيخ ناصيف كثيرًا في شرح بعض الدروس على طلبته دلالة على ثقته به، وإعجابًا بذكائه وسمو مداركه.

ولم تمض مدة طويلة على تدريسه في المدرسة البطيركية حتى صار وكيل أعمالها، ومدير شؤونها. وقد ألف في أثناء ذلك كتابًا في النحو والصرف على أسلوب مبتكر طبع ونشر. وكان الإعتماد عليه فيما بعد في تدريس هذين العلمين في المدرسة البطيركية.

وكان سليم تقلا طموحًا ميالًا إلى الرقي والتقدم، فلما وجد نفسه قد وصل إلى غايته في مهنة التدريس، تآقت نفسه إلى الإشتغال بالكتابة والأدب، ورغب في إنشاء صحيفة أدبية وسياسية لتروي ميوله الخاصة.

الأهرام الأسبوعية

وكانت مصر في أواخر القرن التاسع عشر قد نشطت فيها حركة

أديبة، وأنشئت بها عدة مجلات محدودة كان البعض منها حكومياً، والبعض الآخر تشجعه الحكومة، فلاح له أن يرحل إلى مصر، فنزلها سنة ١٨٧٤ وأتصل برجال حكومتها وأهل الفضل والأدب والعلم فيها. وأعتزم أن ينشئ جريدة عربية. وكانت الجرائد كما قلنا لا يعرف سواد الجمهور منها إلا إسمها، وليست من المشروعات المرجحة، ولكنه على الرغم من ذلك أخذ يسعى ويتردد بين مصر والإسكندرية سنة كاملة للحصول على إمتياز جريدة حتى سمحت له الحكومة بإمتياز جريدة الأهرام، فأصدرها أسبوعية بمدينة الإسكندرية، ولم يستطع إصدارها يومية إلا بعد سنوات!

أصدر سليم تقلا الأهرام أسبوعية ، ولم يكن لديه من معدات التحرير والتحرير والنشر والطبع إلا ما فطر عليه من الثبات وحسن التصرف والإستقامة، وما أكتسبه من العلم والإختبار مع شيء يسير من المعدات المادية، فقاسى في سبيل نشر الأهرام مشقات كبيرة، ولكنه ذل كل تلك الصعاب بالصبر والمتابعة، فضلاً عما كان يلاقه أصحاب الجرائد في ذلك الحين من أستهجان الناس للصحافة وقلة عنايتهم بالقراءة والإقبال على تثقيف أنفسهم وذويهم، وإهمالهم لتتبع الحوادث وما ينبغي أن يعرفه الإنسان من تاريخ حياته اليومية، وما يجب عليه من تثقيف مداركه ومسائره للتطور الحديث. ولقد قال سليم تقلا مرة لأحد أصدقائه:

«أنشأت الأهرام وأنا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب، فكنت أقضي النهار والليل عاملاً بدناً وعقلاً، وكنت أحررها وأديرها، وألاحظ عملها، وأتولى معظم أعمالها مما يقوم به الآن عشرة من الموظفين».

الأهرام اليومية

بقيت جريدة الأهرام في الإسكندرية تصدر أسبوعية، ثم رأى مؤسسها أن يصدر جريدة يومية سماها صدى الأهرام، فلاقى من المتاعب في إصدار هذه الجريدة أضعاف ما لاقى في إصدار جريدة الأهرام. ومما يحكى عنه أنه لما أصدر صدى الأهرام اليومية طبع من عددها الأول أربعة آلاف نسخة، وزعها على نخبة من أهل القطر وأعيانه وشخصياته كجاري العادة في الجرائد في ذلك الحين عند أول صدورهما، فرجعت إليه إلا عشرات منها. على أن ذلك لم يثن من عزمه، بل واطب على إصدارها، حتى وقع الخلاف بينه وبين الخديو إسماعيل، وأستاء هذا الخديو من أخبار نشرها عن سياسته، فأمر بوقف جريدته وسجنه ومصادرة مطبعته، ثم شفع له بعض ذوي النفوذ عند الخديو، فعفي عنه وعن صحيفتيه، فعاود إصدار صحيفة ثالثة سماها «الوقت». ولكنها لم تعش طويلاً، فأكتفي بالأهرام اليومية.

وما زال سليم تقلا يصدر جريدته الأهرام بالإسكندرية حتى كانت الحوادث العراقية سنة ١٨٨٢ فاضطر إلى المهاجرة إلى سورية كما فعل غيره من النزلاء غير المصريين. فلما أحرقت الإسكندرية أصابت النيران مطبعة الأهرام بالمنشية فأحرقت كثيراً من أعماله وكتابات ومؤلفاته. ولما أنقشعت غياهب الثورة عاد إلى الإسكندرية وأعاد نشر الأهرام. وفي سنة ١٨٩١ سافر إلى فرنسا فرار عاصمتها، وكثيراً من مدنها وكان يكتب الأهرام منها، وفي السنة التالية سنة ١٨٩٢ أصيب بألم في القلب، فأشار عليه الأطباء بالسفر إلى لبنان لتغيير الهواء فسافر إليه، ولكنه لم يلبث أن توفي ولم يخلف ذرية.

الصحافي الأديب

وكان رحمه الله كاتبًا مخلصًا وأديبًا مسالمًا، وديع النفس، كريم الأخلاق. وقد أستكتب في جريدته كبار العلماء والأدباء المشهورين من أمثال الشيخ محمد عبده وغيره. وكان رائع التنظيم لصحيفته حتى إمتازت على الصحف اليومية الأخرى بحسن تنظيمها وعنايتها بالبرقيات الخارجية، والأخبار الداخلية، وكان ينتخب البرقيات الهامة، فيجعل لها الصدارة.

ولما أصدر الأهرام يومية سنة ١٨٨١ أذاع سليم تقلا مبادئها وخطتها وهي تلخص في أنه سيرفع منها ألقاب التمجيد والتقريظ مثل: «الوطني النزيه»، و«الهمام النبيه» و«الشريف الوجيه» وما إلى ذلك من الألفاظ. وسيكتفي بالرتب الرسمية.

وقد قرر أن يلحق بذيل الصحيفة ترجمة طيبة لناحية من نواحي الأدب الرفيع في التراجم والقصص، ثم مضى يعيد نشر هذا في كتب تصدر عن الأهرام، وتباع للناس، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها في إذاعة لون من ألوان الثقافة العامة كانت مصر وسائر بلاد الشرق في أشد الحاجة إليه. وخصص يومًا من أيام الأهرام لمراجعة النشاط الاقتصادي في مصر ومعالجة الأمور المالية معالجة قدمت محررها في هذه الناحية على جميع محرري عصره. وأفرد في الأهرام جزءًا لنشر أبناء الشرق الأدنى وشرح مختلف نشاطه العلمي والأدبي والسياسي.

ولم يكن سليم تقلا صحافيًا أو سياسيًا فحسب، بل أديبا وشاعرًا

أيضا. وهو القائل في الأساطيل الحربية:

تلك الأساطيل فوق الغمر ساجحة

والغمر منها كسهل، وهي كالقلل

دانت لهيبتها الأنواء خاضعة

فحيثما قصدت حلت بلا مهل

وله في الدعابة شعر لطيف، قال في التدخين:

عدل التدخين قوم قد رأوا

بيدي سيكاره أعشقه

قال دعها، فهي سم نافع

قلت لا والله لا أعتقها

أن تكن سما فاني محرق

شرها بالنار إذ أحرقها

وعليه فأعدلوا أو فأعدروا

فعلى الحالين لا أطلقها